سورية ولبنان

(١) نظرة عامة

لما تبلج فجر الحرية وانهزم ليل الاستبداد تاقت نفسي الى رؤية البلاد التي ولدت فيها ونشبت وتغذى جسمي من خيرات ارضها وعقلي من علوم مدارسها قبل ان الجأتني يد الاستبداد الى هجرانها . لكن الدستور الذي اطلق الحرية للعثمانيين وفتح السجون للمسجونين قيَّد الصحافيين بمراقبة مجاري الاحوال وحملهم اعباء ثقيلة في تقصي الاخبار وبسط الاماني والآمال فتضاعف اشتغالهم وتعذَّر عليَّ التفرغ للراحة وزيارة مسقط رأسي قبل اواخر هذا الصيف . وقد ردَّ البعض ان يقفوا على ما رأيتهُ فيه بعد هذا الهجران الطويل فكتبت السطور التالية موجزاً المقال على قدر الامكان

مما يعرف بالبداهة ان الانسان لا يتنبه لسير الافعال المتصلة ولاسيما اذا كانت بطيئة فينمو ابنهُ يوماً بعد يوم وسنة بعد اخرى ولا يتنبهُ لنموه . يراهُ طفلاً ثم شاباً فلا يستغرب ذلك لان نموهُ بطيء متصل . ولكنهُ اذا فارقهُ طفلاً ثم عاد اليهِ بعد عشرين سنة ووجدهُ رجلاً رأى الفرق كبيراً ولو كان عادياً . واذا فارق شيئاً ثم عاد اليهِ فرآهُ قد نما نموًّا غير عادي فهناك الدهشة الكبرى وهذا عين ما جرى لي فاني برحت سورية في اوائل سنة ١٨٨٥ ثم عدت اليها للاصطياف سنة ١٨٨٧ ولم تعد عيني تكتحل برآها الاَّ الآن . وقد شاهدت جانباً كبيراً منها في صباي منذ نحو خمسين سنة ثم شاهدتهُ منذ خمس وعشرين سنة وكان ذلك آخر عهدي به قبل رأيتهُ الآن بلغت دهشتي اقصاها لانني رأيتهُ قد نما في الخمس والعشرين سنة الاخيرة اضعاف ما نما في التي قبلها لاسيما وان احوال الحكومة العثمانية كانت قد ساءت في هذه السنين الاخيرة واستحكمت حلقات الضيق على الاهلين حتى اضطرَّ كثيرون منهم الى المهاجرة فقصدوا الديار المصرية وانتشروا في اميركا الشمالية والجنوبية وبلغوا استراليا وجزائر البحر وحلَّك ليل الاستبداد وجرى من الفظائع في البلاد ما لم يجر في عهد نيرون وصودر الناس في املاكهم واموالهم وكمَّت الافواه عن الشكوى وراجت سوق الجاسوسية واتخذها الاشرار وسيلة للايقاع بالابرياء وضربت الرشوة اطنابها في البلاد فهضمت الحقوق واستحلت المحرمات . وكانت اخبار ذلك تصل الينا من افواه الثقات فلا نشك في صحتها وفي ان البلاد انحطت عما كانت عليهِ لما فارقناها وحتى الآن لم تقابل احداً يؤخذ بقولهِ من رجال لبنان ومدن

الساحل الا سمعناه يشكو من سوء الحال الماضية والحاضرة ايضاً

ولم نكن نجهل ان الشكوى قد لا تكون دليلاً على عظم البلوى بل على زيادة الشعور الناتجة عن تحسن الحال . ولكن الاخبار التي كانت تروى عن الحالة الماضية وما جاهرت به الجرائد العثمانية بعد اعلان الدستور وما يجاهر به رجال الحكومة انفسهم الآن كل ذلك ادلة قاطعة على ان احوال الحكومة كانت في الدرجة القصوى من الاختلال والفساد

ولم نكن نجهل ايضاً ان اموال المهاجرة افادت سورية عموماً ولبنان خصوصاً فزاد عمرانه وبنيت فيه البيوت الفخيمة وغلت اسعار املاكه . وان سكة الحجاز افاضت الاموال على دمشق وما يجاورها فان اخبار ذلك كانت ترد علينا من افواه الثقات ولكن الذين كانوا يصفون لنا حال البلاد لم يكونوا يصورونها كما رأيناها لانهم كانوا يرون البلاد ترتقي ارتقاء متدرجاً فلا تسنى لهم المقابلة بين حالها الماضية وحالها الحاضرة ولان غواشي الظلم التي كانت مخيمة على البلاد امتزجت بكل ما يدعو الى البهجة والحبور فكدرت الصفاء وازالت الرواء . وحتى الآن لا تزال الشكوى عامة من كل شيء حتى من جمعية الاتحاد والترقي التي لها الفضل الاكبر في انقاذ البلاد ومن الدستور الذي هو اكبر نعمة انعم بها الله عليها ومن المهاجرة التي لها اليد الطولى في ارتقائها

وفي الربيع الماضي زار لبنان معتمد الدولة البريطانية في القطر المصري مستشفياً من انحراف المزاج بصحنايا ونزل في فندق بيرمانا قضى فيه اياماً ثم عاد الى القطر المصري مدهوشاً مما رآه من آثار الحضارة ومعالم العمران معجباً بما شاهده من جمال البلاد الطبيعي والصناعي لا يكاد يجد الفاظاً للتعبير عن ذلك . وقد يظن لاول وهلة انه توقع ان يرى الجبل صخوراً قاحلة وسكانه همجاً مثل عامة سكان الجبال فلما رأى ما هو ارقى من ذلك ولو قليلاً اعجب به ودعا صحب المجاملة الى وصف لبنان امام ابنائه وصفاً يفوق الحقيقة ومدح سورية مدحاً لا تستحقه . ولكن الذي يعرف طباع الانكليز يعلم انهم لا يميلون الى المجاملة ولا يطنبون في مدح ما لا يستحق المدح فتاقت نفسي الى رؤية البلاد باسرع ما يمكن وبادرت الى تدبير اشغالي حتى تمكنت من زيارتها الآن

قمت من القاهرة وطني الثاني في السادس من سبتمبر (ايلول ؟) وركبت باخرة نمسوية مما يمخر بين مصر والشام فوجدتها من انظف البواخر واوفاها خدمة ولقد فضلتها على غيرها مع طول شقة السفر فيها لانها تقف في يافا وحيفا فيتسنى لي ان اراها واقابل بين حاضرها وماضيهما فوجدتهما قد نمتا نمواً عجيباً منذ خمس وعشرين سنة الى الآن لكن هذا النمو

اقتصر على ما يتعلق بالسكان ولم يتناول ما يناط فعلهُ بالحكومة فبنيت البيوت الفخيمة وانشئت الاسواق الكبيرة واتسع نطاق التجارة وزادت الواردات والصادرات حتى غصت بها الجارك وبدت على الناس دلائل الثروة والرفاهة. وقد زرت عكاء مدة قيام السفينة في حيفا فلم اجد فيها مباني جديدة لان مبانيها القديمة تملأ ما بين اسوارها ولكنني وجدت فيها من دلائل الرفاهة معملاً للثلج يدار باحدث الآلات البخارية آلة الانثراسيت. واتفق ان وصل الى يافا حافظ بك السعيد مبعوثها وسعيد بك الحسيني مبعوث القدس يوم وصولي اليها فلم ارَ من السكان اهتماماً باستقبالهما لكني رأيت وجهاء المدينة يفدون للتسليم عليهما ومذاكرتهما في مصالح البلاد دلالة على ان زمان البهرجة قد مضى وجاء زمان التعقل والتروي. ولقيت في يافا وحيفا جماعة من الوجهاء والفضلاء منهم عمر افندي البيطار وجرجي بك دباس ويوسف افندي عرقتنجي وعبد اللطيف افندي العمري وعلي بك رضا واسكندر افندي فياض وانطون افندي متى. وكان حديثهم متجهاً كلهُ الى حال البلاد الادارية والاقتصادية كانتقاء المأمورين وتوسيع الجارك وانشاء المراقد واصلاح الشوارع وما اشبه. ولأهل حيفا اهتمام شديد بانشاء مرفإ لمدينتهم وقد حادثت ربان السفينة في امره وحسبت نفقاته بناء على ما اعلمني من طول اللسان الممتد تحت البحر من جبل الكرمل وعمقه فلم اجد انها تزيد على مئة الف جنيه الى مئة وعشرين الفاً فاذا انشئ تحوّل جانب كبير من تجارة سورية الى حيفا وعسى ان لا تستأثر القنالة الالمانية التي هناك بالجانب الاكبر من تلك التجارة. وقد ازدادت تجارة يافا الآن وتبلغ قيمة صادراتها نحو ٦٥٠ الف جنيه وقيمة وارداتها نحو ٤٥٠ الف جنيه ويصدر منها كل سنة نحو مليون صندوق من البرتقال. اما بيروت فمبانيها وامورها التجارية والصناعية تقتضي رسالة مسهبة فارجئها الى فرصة أخرى

ويقال بنوع عام عن مدن الساحل التي رأيتها يافا وحيفا وعكاء وبيروت ان كل ما يناط فيها بالاهلين قد تقدم تقدماً عظيماً منذ خمس وعشرين سنة الى الآن لا يفوقهُ تقدم مدينة مصرية في هذه المدة عدا القاهرة والاسكندرية. واما ما يناط بالحكومة فبقي على حاله او انحط عما كان عليه كأن الاهلين تقدموا رغماً عن الحكومة والحكومة تأخرت رغماً عن الاهلين. ولم ارَ للحكومة الحديثة اثراً يذكر في هذه المدن سوى برج ساعة في يافا وبرج ساعة في حيفا ودارٌ حسنة للحكومة فيها. واما التنظيم فلا اثر لهُ وطرق المركبات امست احقر ومزالق وحدائق النزهة لا وجود لها الاَّ في بيروت ولا مصارف لمياه الامطار ولا تماشي للشوارع ولا غرابة في ذلك لان الذين اساءوا سياسة الرعية وافسدوا امورها لا ينتظر

منهم ان يحسنوا مظاهرها و يصلحوا مرافقها ولا انا ممن ينفش عن سيئة في زمان كلهُ سيئات فقد مضى ذلك الزمان بجرمهِ وبجرمهِ وعلى رجال الحكومة الدستورية الآن ان يجاروا الرعية ويسبقوها في ميدان العمران

وصلت بيروت عند الفجر ونظرت اليها نظرةً عامة ولم اقف فيها بل ذهبت الى الحدث مسقط رأسي لازور مدفن والدي فرأيت انها نمت منذ خمس وعشرين سنة الى الآن اكثر مما نمت في كل سنيها الغابرة مع انها كانت مقرًّا للامراء الشهابيين وزادت دهشتي لما رأيت ان الذين كنت اعرفهم ولا شيء لهم من الثروة قد تاجروا واثروا او هاجروا ورجعوا باموال وافرة وانشأ بعضهم بيوتاً تجارية في باريس ونيويورك وقد بنوا كلهم البيوت الكبيرة وانشأوا المخازن الواسعة لخزن بضائع سكة الحديد

ثم صعدت الى ظهور الشوير حيث تقضي عائلتي فصل الصيف واخترت طريقاً سرت فيهِ اولاً منذ نحو خمسين سنة وثانياً منذ نحو ثلاثين سنة وكان في النوبتين على غاية الوعورة يسير فيهِ البغل والفرس متعثراً ويقف مرةً بعد اخرى يستنشق الهواء ولو نطق لاستنزل النقم على الانسان الذي كلفهُ ذلك العناء . وكانت الطريق مجمعاً للحجارة التي يجمعها اصحاب الحقول من حقولهم ويطرحونها فيهِ او سيلاً لمياه الامطار وكانت بيوت القرى من الساحل الى الشوير صغيرة مثل سائر بيوت لبنان ما عدا مساكن الامراء اللمعيين في يرمانا وبعض البيوت في بيت مري وبعبدات وما عدا اديرة الرهبان على رأس كل صومعة . وكانت جوانب الآكام جرداء اكثرها وهي من اصلح الاراضي لزرع الصنوبر فما اعظم الفرق بين ما رأيتهُ حينئذٍ وما رأيتهُ الآن . صعدت بركبة يجرها جوادان لا يكادان يشعران بالتعب لسهولة الطريق مع تعبها الكثير وقد طالت لكثرة عطفاتها وكأنها طالت وتلوَّت لتمتع الراكب باختلاف المناظر شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً فمن الآكام الى بطون الاودية قرى ومزارع بيت فيها البيوت الفخيمة بناء محكماً ومسقفة بالقرميد ولبعضها واجهات على اعمدة من الرخام والارض حولها نضرة بما فيها من التوت والكرم وجوانب الآكام مغطاة كلها بحراج الصنوبر زمرد وزبرجد والوان العقيق والبيوت بينها مسادير من الفضة منوجة باليواقيت

ولقد جلت في ايطاليا وسويسرا وفرنسا وانكلترا وشاهدت مجالي الغنى والمجد والعمران ومحط ثروة الهند الشرقية والهند الغربية ولكنني لم ارَ هناك ما هو دل على الغنى في القرى والمساكن مما رأيت في قرى لبنان . واتفق ان امطرت السماء في اليوم السابق مطراً غزيراً غسل وجه

الارض وجرف ما سنتهُ حوافر الخيل وعجل المركبات من الطرق فتجلت الطبيعة بابهى مجاليها

وظلت المركبة تسير بي الهوينا الى ان بلغت ظهور الشوير وهناك لم أكد اصدق عيني فاني رأيت هذه الظهور آخر مرة منذ نحو ثلاثين سنة وكانت قفراً اجرد لا شجر فيهِ ولا نبات ولا ما يدل على وجود الانسان الا خان حقير يستريح فيهِ المكارون اما الآن فخراج وكروم وبيوت نحيسة كاكبر بيوت المدن وتندقان كبيران وقهاوي ودكاكين . والمصطافون من سدن الساحل والديار المصرية جلوس في القهاوي او مشاة في الطرق للنزهة او وقوف في شرفات المنازل وبعد قليل اظلت على الشوير نفسها تلك القرية القديمة التي نزلت اليها في صباي على درج متخرب كثير العثرات اما الآن فيوصل اليها بطريقين من طرق المركبات المبسطة وقد زادت عمارتها مع انها كانت من القرى الممتازة بجودة مبانيها لان البناء صناعة اهلها ولكن شتان بين مبانيها القديمة وبين المباني التي انشئت فيها منذ ثلاثين سنة الى الآن ثم التفت شرقاً وغرباً من الحنشارة الى بكفيا فاذا على كل ما فيها من البيوت والكنائس والاديرة دلائل التجدد والسعة والثروة

وان قلمي ليعجز عن وصف ما رأيتهُ بعد ذلك في بكفيا وبرمانا وبيت مري وعاليه وسوق الغرب وعاريا وبحمدون وصوفر وحمانا وزحلة مدينة لبنان الكبرى . دخلت بيتاً من بيوت عاريا منذ ثلاثين سنة وهو لوجيه من اكبر وجهاء لبنان وكان اكبر بيوت عاريا واكثرها اتقاناً لانهُ بني على نسق البيوت الصغيرة في بيروت . ثم دخلتهُ الآن فوجدت ان صاحبهُ قد زادهُ بناء واتقاناً فصار اكثر من ضعفي ما كان لكن القرية التي لم يكن فيها بيت يضاهيهِ وهو في حالهِ الاولى صار فيها الآن بيوت اكبر منهُ واجمل وهو في حالهِ الحاضرة . ودخلت داراً في بكفيا منذ ثلاثين سنة كانت اكبر دورها بل اكبر قصورها وحالما أُضيف فيها امراء اوربا واولاد ملوكها ودخلتها الآن وقد زادها صاحبها بناء واتقاناً ولكني رأيت في بكفيا دوراً كثيرة اكبر منها وانعم وقد تأنق صاحب دار منها فجعل درجها من المرمر . ويقال ان شمالي لبنان الذي لم ارهُ حتى الآن اكثر عمارة من الجهات التي رأيتها وكل ذلك جديد فيهِ لم يكن منذ ثلاثين سنة . ولم يكتف السكان ببناء المباني وغرس الكروم والحراج بل استخدموا كل وسائل العمران الجديدة فترى حقولهم مسيجة بالاسلاك المعدنية ذات الرؤوس وبيوتهم موقية من الصواعق بقضبان الصاعقة وعلى صهاريجهم الطلمبات لرفع الماء منها . وقد مررت قبل كتابة هذه السطور في قرية حمانا فرأيت نجاراً يدير مناشيرهُ ومخارطهُ بآلة بخارية ومغربلاً يغربل قمحهُ بآلة اميركية

فمن اين هذه الثروة وما هو مصدر هذا الارتقاء . أمن خيرات لبنان ام من مساعي حكومته ام من عدل الولايتين المجاورتين له . كلا لا شيء من ذلك بل من المهاجرة التي اغدقت عليه ينابيع الثروة وعلمت ابناءه الاقتداء بالامم المتمدنة . ولقد هاجر اللبنانيون تجاراً ولو ببضائع زرية ليس لها كبير قيمة ولا هي من بضائع كبار التجار فركبوا البحار كما كان يفعل اسلافهم الفينيقيون وضربوا في ولايات اميركا الشمالية والجنوبية ووصلوا الى استراليا والترنسفال واقاموا في جوانب اليابان واكتسبوا من الامم التي اتجروا في بلادها وعادوا بالاموال الوافرة فبنوا البيوت وباعوا الاملاك وكرروا السفر ولا يزال هذا شأنهم الى الآن فاستفادوا وافادوا مدن الساحل المجاورة لهم . والذين لم يهاجروا شاركوا المهاجرين في الكسب لانهم عاملوهم او باعوهم بعض املاكهم باغلى الاسعار حتى ان ما يساوي مئة جنيه من مزارع التوت وكروم العنب بيع بثلاثمئة جنيه او باربع مئة فتوزعت بذلك الاموال المكتسبة من المهاجرة على سكان الجبل وما يجاوره وهذا شأن كل القرى السورية التي هاجر سكانها للمهاجرة . وسأعود الى تفصيل هذا الاجمال في الفصول التالية واصف ايضاً ما لقيته من كرام السوريين عموماً واللبنانيين خصوصاً من الحفاوة التي لا استحق عشر معشارها تحدثاً بفضل اصحابها . ثم استطرد الى سياسة البلاد الحاضرة ورأي اصحابها فيها

(٢) الزراعة والصناعة والتجارة والامارة والضيافة

لا مندوحة للكاتب العربي عن الرجوع الى تقسيم المعايش كما جرى عليه حكماء العرب الى زراعة وصناعة وتجارة وامارة . ويضاف الى ذلك باب خامس وهو الاكتساب من الزوار والسياح والمصطافين وقد اطلقت عليه اسم الضيافة ولو كانت الضيافة اصلاً لاكتساب الاسم لا المال

الزراعة — وجدت الزراعة قد اتسع نطاقها في جهات سورية ولبنان خلافاً لما ينتج عن مهاجرة السكان وفساد الاحكام وربما لم تتسع كما يجب لان خمساً وعشرين سنة من سني الرخاء يزيد السكان فيها اربعين او خمسين في المئة فيجب ان يزيد سكان سورية ولبنان فيها سبع مئة الف نفس وعدد المهاجرين الآن ليس اكثر من مئتي الف فيبقى نحو خمس مئة الف نفس زادوا في البلاد منذ خمس وعشرين سنة الى الآن ولا يظهر لنا ان الزراعة زادت على هذه النسبة ولو كانت زيادتها كبيرة

واكثر الزيادة في غرس الجنائن والبساتين والتوت والكرم وفي زرع الاحراش في لبنان

ولاسيما في المدن من مدير ياته فان جوانب اكامه اكتست باشجار الصنوبر . ولو بذلت العناية لزرع الحراج في كل لبنان من جهتيه الغربية والشرقية وفي كل الجبال السورية ومنعت المعزى من رعيها واستغلال الحراج الطبيعية لكان من ذلك مورد ثروة كبيرة جداً ولزاد بالحراج مقدار المطر ولتزورت الينابيع ولو لم يزد لان جذور الاشجار تقي التراب من جرف المطر له والتراب يمتص الكثير من ماء المطر فيغور في الارض ويجري مع ينابيعها بدلاً من ان يجدر عنها ويجري مع مياه الغدران

ولكل الدول المتمدنة اعتناء عظيم بتحريش بلادها وحفظ حراجها وقد رأينا الناس في سويسرا لا يقطعون من اشجار حراجهم الاَّ عدداً معلوماً كل سنة واشجاراً معينة جارين في ذلك على نظام معلوم حتى يزيد عدد الاشجار في الحراج ولا ينقص . وتذكران فرنسو باشا متصرف لبنان الثاني ووالد دولتلو يوسف باشا فرنسو المتصرف الحالي وزع بذور الصنوبر على ضياع كثيرة ورغب الاهلين في زرعها وهي الآن باسقة الاشجار تردد آيات الثناء عليه . ولو حذا حذوه كل المتصرفين والولاة لكانت جبال سورية الآن مثل جبال سويسرا في كثرة حراجها وغياضها

قال لنا امير من امراء لبنان انهُ جرب التحريش فوجد نفقاته كبيرة جداً تزيد عما ينتظر منهُ من النفع . وقد اصاب لانهُ من الذين لا يعملون بايديهم ولا يراقبون املاكهم بانفسهم فلا عجب اذا كلفهُ زرع الحراج نفقات كثيرة اما الفلاحون والملاك الذين يراقبون املاكهم بانفسهم ويقتصدون في نفقاتهم ولا تذهب اموالهم اجوراً لخدمهم فلا يكلفهم زرع الحراج ما يكلف غيرهم

ويظهر لنا انهُ لا بد لحكومة سورية وحكومة لبنان من ان تجريا مجرى الحكومة المصرية في ضرب الضرائب على الاراضي البور التي يمكن ان تزرع حراجاً او زراعة اخرى اجباراً لاصحابها على زرعها واستثمارها . وليس من العدل ولا من الحكمة ان يكون لزيد مئة دنم او مئة فدان من الارض البور التي تحميها الحكومة من اعتداء الآخرين عليها وتزيد لهُ قيمتها بما تفعلهُ لترقية البلاد بنوع عام وهو لا يدفع شيئاً للحكومة عن هذه الحماية وهذه الترقية بل يترك ما في ارضهِ من الخيرات الطبيعية يضيع سدًى من غير ان ينتفع بهِ احد . فاذا ضربت الضرائب على الاراضي البور اضطر اصحابها ان يزرعوها او ان يبيعوها لمن يزرعها فتحصل الفائدة المطلوبة من استثمارها

ويسهل منع المعزى من الاضرار بالحراج بل من استئصالها وذلك بضرب الضرائب

الثقيلة عليها فاذا ضربت الحكومة ريالاً او ريالين على كل رأس من المعزى اضطر اصحابها ان يذبحوها فتنجو البلاد من آفة لا اضرّ منها عليها

ولم ارَ تقدماً يذكر في اتقان الزراعة فلا يزال الزيتون يحمل سنة ويبطل الحمل اخرى مع ان اهالي ايطاليا وفرنسا يعالجونهُ حتى يحمل كل سنة . ولا تزال الكروم في لبنان قليلة الحمل مع ان الجزويت اتوا بدوالي تحمل اكثر منها كثيراً وقد رأينا الكروم في سويسرا وايطاليا وحملها يزيد على حمل كروم لبنان ورأينا في الكرم الواحد من لبنان دوالي كثيرة الحمل جدّاً مع ان اكثر دوالي الكروم قليل الحمل فلو اعتني بالزراعة الاعتناء الواجب لاكثر اربابها من زرع ما يكثر حملهُ لا غير

اما زراعة التوت والتبغ وسائر اشجار الفاكهة في مدن الساحل وغوطة دمشق فنظن انها بلغت حد الاتقان لانهُ ليس اكثر من برتقال يافا وعنب صيدا وتفاح الزبداني وعنب دمشق ودراقنها (خوخها) وكمثراها

***

الصناعة — لقيت الصناعة السورية من مزاحمة البضائع الاوربية ما اضعفها وكاد يقضي عليها فبطلت صناعة الفخار الاّ الجرار والاباريق وضعفت صناعة الصابون وقلت انوال الحياكة بعد ان كانت منتشرة في كل المدن والقرى ولكن البقية الباقية من الصناعة السورية ليست مما يستخف بهِ فكل المصنوعات الحريرية تصنع الآن في البلاد السورية ويصدر من مصنوعات دمشق المطعمة مقدار ليس بالقليل يرسل الى اوربا واميركا والقطر المصري . وقد استحضر السوريون احدث الآلات والادوات لاتقان اعمال التجارة وتسهيلها حتى اننا رأينا نجاراً في قرية حمانا من قرى لبنان يستعمل آلة بخارية لادارة مخارطهِ ومناشيرهِ . ولاهالي دمشق والزوق وبكفيا تجارة واسعة بمنسوجاتهم الحريرية والصوفية والقطنية فترسل الى اوربا واميركا والقطر المصري والحجاز وبر الاناضول وفس على ذلك المصنوعات الصوفية على انواعها . وقد شاعت الآن صناعة جديدة — صناعة حبك الدانتلات على انواعها وهي خاصة بالنساء . ففي بيروت معمل فيهِ الف بنت يعملن بهذه الصناعة ويشاركهن في ذلك كثيرات من بنات لبنان . وقد شاهدت بنات الجبل لابسات افخر الملابس كبنات المدن فقيل لي انهنَّ يلبسن كذلك من عمل ايديهنَّ فان الابنة منهنَّ تكتسب في يومها من شغلها الى خمسة شلنات من صناعة الحبك وعمل النول . وترسل هذه المصنوعات الى اميركا حيث يروج اللبنانيون صوفها فيكون كل ربحها لهم . وقد رأيت مخازن دمشق مملوءة بالمنسوجات الدمشقية قلدوا بها الكشمير على

كل اشكاله . ونهض الحائكة الآن يحياهون بلبس المنسوجات الوطنية ولكنهم يجلبون الغزل من اوربا فلو انشئ في البلاد معمل يغزل القطن المصري او قطناً سورياً طويل الشعر كالقطن المصري ونسجت المنسوجات منه وعرف الناس مزيته من حيث متانته ولمعانه لدفعوا ثمنه مضاعف ما يدفعون ثمن ما ينسج من غزل اوربي وكانوا هم الرابحين . اما اتقان الحائكة لصناعة الخشب المخروط والمطعم ولصناعة البلاط المنزل فسأعود اليه في الكلام عن مباني دمشق

* * *

التجارة — السوريون بنوع عام تجار ابناء تجار ورثوا الميل الى التجارة من اسلافهم الفينيقيين الذين كانوا يأخذون مصنوعات صور وصيداء وارواد من الخز والصوف والكتان والجلود والارجوان ويسيرون بها بحراً الى سواحل اوربا وافريقية والهند ويتاجرون بها ويجلبون بدلاً منها الذهب والفضة والنحاس والقصدير والعاج والابنوس . ومن اسلافهم العرب الذين كانت قوافلهم حلقة الاتصال بين الشرق والغرب

والمهاجرة التي شاعت منذ ثلاثين سنة الى الآن انما هي ضرب من المتاجرة فان الذين يهاجرون يذهبون الى اوربا واميركا وافريقية واستراليا وجزائر البحر بمصنوعات بلادهم ويتجرون بها ويعودون بالاموال التي كسبوها منها. وقد توطن بعض المهاجرين في البلاد التي هاجروا اليها كما فعل اسلافهم الفينيقيون الذين عمروا قرطاجنة وكانوا اكبر اعداء الرومانيين نعم ان مفهوم التجارة في هذا العصر اسمى من ان يتناول بيع السلع الصغيرة بالتفاريق كالمسابح والمسابح وما اشبه مما يبيعه بعض المهاجرين ولكن معنى التجارة الاصلي بيع البضاعة مهما كان نوعها وهذا ما يفعله المهاجرون . ولبعضهم بيوت تجارية كبيرة تتعاطى التجارة باوسع معانيها وتقدر البضائع التي في مخازن بعضهم بمئات الالوف من الليرات ونرى بيوت السوريين التجارية منتشرة في اكبر عواصم الدنيا مثل لندن وباريس ونيويورك والاستانة ولفربول ومنشستر والاسكندرية وريوجنايرو وبوكوهاما وهي تتاجر بكل البضائع الشرقية والغربية ولا شبهة في ان فساد الحكومة الماضي الجأ الوفاً الى المهاجرة ولم يكونوا ليهاجروا لولا ذلك ولكن هذه المهاجرة لم تضر بهم ولا ببلادهم بل استفادوا هم واستفادت البلاد ايضاً وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . ولا نشير على الحكومة الحاضرة ان تقف في سبيل المهاجرة بوجه من الوجوه . وان كان سئون في المئة من المهاجرين قد عادوا الى بلادهم في العصر الماضي مع فساد احكامها فاذا صحت الاحكام عاد تسعون في المئة من المهاجرين وصارت مهاجرتهم اسفاراً تجارية لا غير

والبلاد ربح آخر من المهاجرة لا ينال بدونها وهو ان المهاجرين يعودون واسعي الاختبار عارفين باساليب العمران الجديدة ولا بد من ان يفيدوا بلادهم بها كما يشاهد الآن عياناً . نعم ان بعضهم يعودون بالامراض والاسقام ولكنهم قلال بالنسبة الى غيرهم وليس في الدنيا خير محض لا يمازجهُ شيءٌ من الشر

ولم اجد سبيلاً لتوقف على ما زاد في ربح البلاد من الزراعة والصناعة والتجارة منذ خمس وعشرين سنة الى الآن ولكني وقفت على دليلين قاطعين على زيادة الثروة او زيادة الاموال في البلاد . الاول ارتفاع اجور العمال . فاجر البناء الذي كانت اجرتهُ نصف ريال منذ ثلاثين سنة صارت اجرتهُ الآن ريالاً ونصفاً . والمائة التي كانت تستدان بخمسة عشر منذ ثلاثين سنة صارت تستدان الآن بستة الى تسعة في السنة . وقد بلغني عن بعض المهاجرين الذين رجعوا من اميركا انهم لما لم يجدوا من يستدين منهم اموالهم بفائدة اودعوها بعض الصيارفة واعطوهُ اجرة ايداعها

***

الامارة — اريد بالامارة خدمة الحكومة والتوظف في وظائفها وهي مورد عذب كثير الزحام كان كذلك في العهد الماضي لا طمعاً بالراتب لانهُ لا يشبع من جوع بل طمعاً بما يكتسب من مال الرشوة . فاذا بطلت الرشوة تماماً لم يعد فيها مطمع ولو تضاعف الراتب . وخدمة الحكومة على ما لها من الشأن الكبير ليست من المعايش الكبيرة لان رجال الحكومة من اعلاهم الى ادناهم لا يزيدون على واحد او اثنين في الالف من عدد السكان . ولم اكن لاهتم بهذا الموضوع وانا اتكلم عن المعايش بنوع عام لولا اني رأيت في لبنان امراً لا يصح السكوت عنهُ وهو ان طلاب الوظائف فيهِ يقلقونُ راحتهُ ويحيطون مساعي متصرفهِ في اصلاحهِ فالمتصرف يشكو منهم والموظفون يشكون منهم ولم اكلم وجيهاً من وجهاء الجبل الا رأيتهُ يشكو منهم . وقد ذكروا لي اموراً في حد الغرابة فيخسر الواحد من طلاب الوظائف مئات واوقاً من الميرات للحصول على وظيفة لا ليكتسب من راتبها بل ليتهر خصومهُ او ليزيد نفوذهُ في بلدهِ واذا لم يفلح في نيل الوظيفة عربس الحكومة في اعمالها بما يلقيهِ في طريقها من المشاكل والعثرات

وارى ان دواء هذا الداء سهل جداً وهو ان تجري حكومة لبنان مجرى الحكومة المصرية فلا تعزل موظفاً ابداً الا اذا ارتكب ذنباً يوجب عزلهُ بعد محاكمتهِ فيثبت الموظفون الحاليون في وظائفهم من قائمقامين ومديرين وقضاة وكتاب وما اشبه ولا يبقى لاحد مطمع

فيها وتزول المضار الناتجة عن تطلب الوظائف

وينتظر اهالي الولايتين سورية وبيروت من الحكومة الدستورية ان تمهد الوظائف لابنائهما الاكفاء لانهم اعرف بالبلاد من غيرهم وهذا لا ينفي توظيف الاتراك في الولايتين كما لا ينفي توظيف ابنائهما في ولايات اخرى . وما الوظيفة في الحكومة سوى عمل يقتضي ان يتدرب لهُ اقدر العمال عليهِ فيجب ان تكون الكفاءة الشرط الاول الذي يشترط في مأمور الحكومة . ولا يخفى ان معرفة اللغة العربية من اهم لوازم الكفاءة في هاتين الولايتين فاذا تساوت بقية الاوصاف وجب ان يفضل ابن البلاد على غيرهِ لخدمة بلادهِ

***

الضيافة — بلاد الشام كلها اي ولاية سورية وولاية بيروت ومتصرفية لبنان ومتصرفية القدس اكثر البلدان العثمانية مقصداً للسياح والزوار لان فيها بيت المقدس قبلة المسيحيين ومحط آمال الاسرائيليين وفيها دمشق الفيحاء باب الكعبة واقدم مدن الدنيا وفيها جبل لبنان الذي لا يفوقهُ جبل في جودة مائهِ وطيب هوائهِ واعتدال الحر والبرد فيهِ وقد صارت ولايتا سورية وبيروت الآن طريق الحج الى مكة المكرمة فلا عجب ان قصدها الزوار والسياح والمصطافون من كل اقطار المسكونة ولاسيما اذا ضرب الامن اطنابهُ فيهما و بذلت العناية التامة في اراحة الواردين اليهما . اما الربح الذي تنالهُ البلاد منهم فاكثر مما يظن فان اهالي سويسرا مثلاً يربحون من زوار بلادهم ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات كل سنة والمجلس البلدي باريس يربح من زوارها كل سنة سبعة ملايين من الجنيهات وميزانيتهُ كلها اربعة عشر مليوناً

وقد رأينا من اهتمام اللبنانيين بالمصطافين ما يذكر لهم بالشكر فانهم انشأوا الفنادق الكبيرة وانقنوها ولاسيما في صوفر وزحلة وعاليه وسوق الغرب وبكفين وبحمدون وعين زحلتا وظهور الشوير . وكل قرى الجبل الكبيرة الغزيرة الماء تصلح للاصطياف اذا بنيت فيها الفنادق المتقنة وربطت مع بيروت بالبوسطة والتلغراف . وطرق المركبات منتشرة الآن في كل انحاء الجبل ومتصلة بكل قراهُ الكبيرة ولكن يعوزها كلها « المونسات » والاصلاح المستمر . وجدنا لو وسعت كلها حتى يسير عليها الاتوموبيل بسهولة . ولا بد من رشها كلها في القرى وحولها حيث يكثر السير عليها فيكثر الغبار فيها

ومن العبث ترك الامور العمومية كاصلاح الطرق ورشها للاهالي انفسهم لانهم قلما يجتمعون على شيء واذا اجتمعوا عليهِ اليوم تفرقوا غداً فيحسن بحكومة لبنان ان تنشئ ادارة مخصوصة تتولى امر الطرق والمنافع العمومية وترصد عليها ريع الاراضي المشاع او تضرب

ضرائب جديدة على الاملاك التي تنتفع من اصلاح الطرق على نسبة انتفاعها منها

هذا كلام مجمل عن معايش السكان ولا يسعني المقام الآن لزيادة الاسهاب. وقد سألت دولة والي سورية عن نسبة بلاد الشام الى غيرها من ولايات السلطنة العثمانية التي رآها فقال ان ما رآهُ منها حتى الآن يجعلها من ارقى الولايات العثمانية ولا يفوقها الاَّ ولاية سلانيك وانهُ اذا استتب الامن والعدل فيها فاقت كل الولايات العثمانية

(٣) الطرق والمصايف وبيوت السكان

رأيت التغيير كبيراً في سورية ولبنان كما تقدم في رسالتي السابقتين واكبرهُ في الطرق والمصايف وبيوت السكان وها انا شارح ذلك بشيء من الاسهاب

***

الطرق — لما اتيت حيفا وسمعت صوت القاطرات فيها ورأيت سكتها الحديدية قلت هنا مبدأ تغيير كبير ستنال منهُ البلاد الثروة الطائلة والنفع العميم. لان كسب الناس بعضهُ من استثمار الارض واستعمال القوى الطبيعية وبعضهُ من الاقتصاد في قوتهم وقوة دوابهم ومواشيهم باستخدام البخار للحمل والنقل. ولم ترجح كفة اوربا علينا في الزراعة والصناعة والتجارة الاَّ منذ اعتمدت على البخار في اعمالها

وقد اقيم في حيفا نصب جميل تذكاراً لفتح هذه السكة وهو من الرخام يمثل دقة الصناعة ولو لم يمثل لحاستها. وقد ظهرت فوائد السكة بارتفاع اثمان الاراضي وكثرة البضائع المشحونة الى حيفا ومنها. ولا بد من انشاء مرفإ لهذه المدينة ورصيف كبير لتفريغ البضائع لان رصيفها الحالي لا يليق بقرية صغيرة. وانشاء المرفإ لهما لا يقتضي نفقة كبيرة. وقد يظن لاول وهلة انهُ يضر بمرفإ بيروت وبيروت نفسها ولكنني لا ارى الامر كذلك لان خيرات البلاد كثيرة وهي قابلة النمو الى حد يفوق التصديق فيكفي كل من المرفأين حظاً وافراً منها وهب انهُ اضر فالتنازع يقع بين المدن كما يقع بين افراد الانسان والحيوان ولا عذر للقصر فيه

وستشمل فوائد هذه السكة كل البلاد التي تمر فيها وتصل اليها ولاسيما بلاد حوران حيث تزيد غلة القمح على طعام السكان. وكان نقلهُ الى السواحل البحرية يتعذر في غالب الاحيان لغلاء اجرته. وقد شرعت دمشق تجني فوائدها بنقل فواكهها وبقولها الى الاماكن القاصية عدا مصنوعاتها المختلفة

ولما وصلت الى بيروت ورأيت السكة الحديدية الصاعدة الى دمشق والسكة الذاهبة الى المعاملتين وازدحامهما بالركاب والبضائع زالت من نفسي غصة كنت اشعر بها كلما رأيت قطرات سكة الحديد تنساب في البلدان الاوربية سهولها وجبالها والبلاد السورية خالية منها

والقطر بين بيروت ودمشق يسير الموينا لشدة الميل لكن الراكب لا يمل لكثرة ما يراهُ من المناظر البهجة على الجانبين بين آكام توشحت بالدراج والكروم ووهاد تغطت بالحدائق والبساتين وبين هذه وتلك بيوت القرى وأكثرها جديد ابيض الجدران احمر السطوح تدل على رفاهة السكان ورخاء المعيشة . وكنا وصلنا الى محطة والمحطات كثيرة رأى كثيرين في انتظار القادمين او توديع الذاهبين وهم رجال ونساء بوجوه طليقة وثياب نظيفة

وقد تساهلت سكة الحديد للمصطافين في الاجور حتى صار بعضهم يستسهل قضاء الصيف في عاليه او بحمدون وما يجاورهما وينزل الى بيروت ويصعد منها كل يوم . روي عن الاستاذ الحوراني انهُ سئل اين تقضي فصل الصيف الآن فقال في « التران » (القطر) لانهُ يصعد وينزل كل يوم

ورأى المصطافون ان يجعلوا السفر نزهة حتى لا يملوا فتراهم في القطر يأكلون النقل ويشربون القليل من العرق او نحوهِ على جاري عاداتهم قبل العشاء ولم اسمعهم يتحدثون باشغالهم ومتاجرهم كأنهم ترفعوا عن هموم الحياة ومشاغلها لكن لا يندر ان يحدثوك عن احوال الحكومة وما هي سائرة اليهِ

ومتى اجتازت السكة صوفر ووصلت الى ظهر البيدر صارت الارض قاحلة على الجانبين لشدة البرد هناك شتاء وتراكم الثلوج ولكنك لا تلبث ان تطل على سهل البقاع وهو مزروعٌ وغير مزروع من اجمل بقاع الدنيا لاختلاف الوان ارضهِ ومزروعاته لاسيما وان جانباً كبيراً منهُ بساتين من شجر التوت وجنائن من الفاكهة يحيط بها شجر الحور كالسوار بالمعصم . ولهذا الشجر ريع كبير لانهُ لا يشغل الاَّ مساحة ضيقة من الارض وقد يبلغ ثمن الشجرة منهُ مئة غرش او مئتي غرش اذا بلغ عمرها عشرين سنة الى ثلاثين ويبيع الفدان الرقا من اشجارهِ ومتى زرع مرةً لا يعاد زرعهُ ثانية لان خراعيب الشجرة المقطوعة تقوم مقامها . ولا بد من ان يكثر السكان من زرعهِ في كل الاماكن التي يكثر ماؤها متى تيسرت لهم وسائل نقل خشبهِ ورخصت

وينساب القطر في البقاع يسرع تارة ويبطئ اُخرى على غير انتظام . لكن الراكب

لا يمل لانهُ يرى أكام لبنان الشرقي والغربي تتغير امامهُ دواماً وهي متساندة بعضها فوق بعض كالقباب وقد اختلفت الوانها فازرت بقوس السحاب . والسند الغربي منها كثير القرى والدساكر والكروم والبساتين واما الشرقي فيكاد يكون قاحلاً لكن قفلهُ زادهُ مهابة . ثم تبتدئ البساتين على جانبي الخط قرب محطة رياق حيث يلتقي خط دمشق بخط حلب ويعطفك وتستمر الى ان يدخل الخط منفرجاً في الجبل الشرقي تجري فيهِ المياه فتحيي ما زرع فيهِ من شجر ونجم . والماء حياة الحيوان والنبات ولا ادل على ذلك من هذا الوادي الذي يكاد يكون شقاً بين صخرين شاهقين يرتد عنهما الطرف كليلاً فان السيول جرفت اليهِ ما استقرَّ فيهِ من التراب وانبثقت الينابيع من جوف الجبل فسقت ما زرعهُ الانسان من شجر ونبات فزكا زكاء عجيباً

والوادي ضيق جداً كثير التعرج لكنهُ غض الشجر ملتفهُ تترقرق المياه فيهِ كالصهباء وتنساب كبطون الحيات . ثم ينفرج عند الزبداني عن جنان كجنائن الخلد وفراديس جمعت الخير ما ولدتهُ يد الانسان من ثمار الارض . ترى العنب والتفاح والاجاص (الكثرى) فتظنها ثمرات صناعية لا طبيعية لجمال الوانها وانتساق اشكالها . وتجد من التكهة والفكاهة في رائحتها وطعمها ما لا تجدهُ في غيرها . والاولاد يبيعون سلالها للركاب وهم بثياب نظيفة ووجوه صبيحة فلا يخطر ببالك ان تفصل شيئاً تشتريهِ منهم . وقد تشتري سلة بقرش فتجد فيها اقة او اكثر من العنب الفاخر

ومن هناك تصير الينابيع تجري الى جهة دمشق الى ان تدخل غوطتها المشهورة في وسكة الحديد وها يقف القلم عن الوصف عجزاً

ولا أدري لمن الفضل الاكبر في خصب هذه الغوطة أللصناعة ام للطبيعة خمسون الف فدان كانها بستان واحد من ملتف الشجر من كل انواع الفاكهة التفاح والمشمش والدراقن (الخوخ) والسفرجل والكمثرى والكرز ومن الاشجار المثمرة وغير المثمرة كالزيتون والجوز والحور والدردار وكروم العنب المختلفة الاشكال والانهر تجري في اعاليها واسافلها متدفقة متزاحمة على ارتفاعات مختلفة وبعضها شديد التحدر جداً فيرغي ويزبد كانهر الخضم حتى ان الماء الذي حوَّلت قوتهُ الى كهربائية لانارة دمشق واجراء الترامواي فيها يبلغ ارتفاعهُ مئة قدم مع انهُ لم يحجز الاَّ مسافة قصيرة جداً . وكأن وقوع هذه الغوطة بين جبال شاهقة نقية الهواء وريها من ينابيع صافية خالية من كل شائبة زادا في نماء اشجارها وزكاء اثمارها

***

والخط بين بيروت والمعاملتين لا تقل مناظره جمالاً عن مناظر الخط بين بيروت ودمشق فمن الجهة الواحدة ترى البحر يرغي ويزبد هائجاً مائجاً او يتجمد ويتنفس هاجعاً خاشعاً وهو في الغالب ازرق كاللازورد شفاف كالبلور انبسطت الجنائن والبساتين على ساحله حتى لثمت صفحة خدمه ومن الجهة المقابلة ربى لبنان بحراجها ووعورها وبيوتها وقصورها مخاريط متساندة متلاصقة عرتها صخورها الامطار وخدّدت جوانبها السيول ولكن بقي فيها من التربة ما يكفي لنمو الصنوبر والسنديان والملول والتين والكرم والزيتون

ويمر الخط في طريق ملوك بابل واشور في سكة الفراعنة والبطالسة والقياصرة الى ايام يوناپرت ملوك لم تزل آثارهم على صفحات تلك الصخور الشواهق شاهدة على سعي الناس في طلب المكسب ولو بتحمل اشد المشاق وقتل الالوف من العباد. وقد استتب لابناء هذا العصر ما عجز عنهُ اولئك الملوك العظام مع شديد بطشهم وواسع ملكهم وكثرة من سادوا من الجنود والاسرى لان هؤلاء قطعوا الصخر ومهدوا طريقاً على شاطئ البحر فسارت فيه المركبات والقطرات واما اولئك فاضطروا ان يسيروا بجيلهم ومركباتهم فوق الصخور والعراقيب

وقد انعمت نظري في بيوت السكان من نهر بيروت الى اسكلة جونيه ومن ساحل البحر الى اعلى ما يصل اليهِ البصر لاستدل منها على مبلغ ثروتهم ورفاهتهم لان ذلك اصدق دليل على نجاحهم وصلاح حالهم. وغني عن البيان ان اكثر هذه البيوت جديد لم يكن شيءٌ منهُ منذ ثلاثين سنة واتفق اني لبثت حينئذٍ سيدة اميركية ربيت في الشام ووقفت نفسها على خدمة ابنائهِ وهي الدكتورة ماري ادي فسألتها عن معيشة السكان في بيوتهم فاكدت لي انها صالحة جداً وقد ترقت كثيراً عما كانت عليهِ منذ عشرين سنة او ثلاثين. ولما اشرف القطر بنا على جونيه لم اصدق اني ارى امامي القرية الصغيرة التي رأيتها منذ ثلاثين سنة فانها اصبحت مدينة كبيرة بيوت فخيمة تضاهي بيوت المدن الاوربية وقد بنت تلك السيدة مستشفى للسلولين الى شمالها لطيب هوائها وبنت لهم مستشفى آخر في الشيانية بوادي حمانا الذي تغزل في وصفهِ لامرتين الشاعر الفرنسوي. والسلولون يقيمون هناك في فصل الصيف وهنا في فصل الشتاء فيشفون في المصحين بطيب الهواء وجودة الغذاء

هذه هي الطرق الحديدية التي رأيتها ولا بأس بها ولا بمركباتها ولا بما يراهُ الركاب من المعاملة. بل ان معاملة الركاب فيها احسن من معاملتهم في القطر المصري فاذا كان مع راكب صندوق كبير يتعذر دخولهُ في مركبة الركاب رضعوهُ في مركبة الامتعة من غير اجرة. ولم ار شيئاً من الخلل الا في عيد الفطر اذ ازدحمت المركبات بالركاب ازدحاماً يفوق الحد وابى

بعضهم ان يدفع الاجرة المطلوبة منهُ فنفض الكوميسارية الطرف تجنباً للنزاع . ثم ان احد الركاب اغتنم فرصة دخول القطر في نفق مظلم فاطلق مسدسهُ مراراً من النافذة فاقلق الركاب ولكن قبض عليهِ قبل ان هرب . واتفق اني دعيت للعشاء مع دولة والي بيروت عشية ذلك اليوم فقال في حديث طويل انهُ منع الخلاق البارود في رمضان فقلت لهُ ولكنهم اطلقوهُ في القطر فقال نعم ولكنا قبضنا على الذي اطلقهُ حالاً وسيعاقب عقاباً صارماً . فدل بذلك على تيقظهِ التام

***

اما طرق المركبات فاني رأيتها منها في المدن في يافا وحيفا وبيروت ودمشق اكثرها لا يصلح ان يكون في مزرعة صغيرة نعم ان في يافا شارعاً جديداً طريقهُ جيد وكذلك في دمشق طريق جديد خارج المدينة ولكن الطرق الداخلية كلها وطرق بيروت الاَّ القليل منها كثيرة الحفر والحجارة خالية من المياه الجانية . ومن الغريب انك ترى في دمشق اسواقاً واسعة مسقوفة بقناطر من الحديد مثل احسن اسواق المدن الاوربية الكبرى ولكن ارضها تراب غير مستو ولا تمشي فيها فيختلط المارة بالبغال والجمال والمركبات على انواعها . والحوادث قليلة ولكن هذا الاختلاط يعيق الناس والدواب عن السير ويضيع الوقت سدًى . وقد سألت اولياء الامر في بيروت ولبنان ودمشق وحيفا ويافا لماذا لا يصلحون الشوارع ويرصفونها فشكوا كلهم شكوى واحدة وهي قلة المال لدى المجالس البلدية

ومن الغريب ان الرجل الذي ينفق خمسة آلاف جنيه على بناء بيت يبخل بخمسة جنيهات في السنة على اصلاح الطريق الموصل اليهِ بل قد يحتال حتى يأخذ شيئاً من الطريق . هذه حال لا ترضي بوجه من الوجوه ويجب ان يقدم توسيع الشوارع على بناء البيوت وان يقدم اصلاحها على اصلاح المساكن . والظاهر ان الناس عرفوا كيف يعيشون ويحسنون معيشتهم افراداً مستقلين ولكنهم لم يعرفوا حتى الآن كيف يعيشون جماعات فكل بيت جديد على حدته حسن البناء والاثاث والرياش ولكن مجموع البيوت غير منتظم والمنافع العمومية التي يشترك الجمهور فيها مهملة كل الاهمال لان الحكومة لا تهتم بها الاهتمام الواجب ولا المجالس البلدية تقوم بما يجب عليها . ولعل الحال تتغير قريباً فان الولاة الثلاثة الذين حادثتهم في هذا الموضوع والي بيروت ووالي سورية ومتصرف لبنان رأيتهم مهتمين باصلاح الحال

وطرق لبنان احسن من طرق المدن ولكنها تفتقر كلها الى المؤنات والى الاصلاح المستمر . ولا بد من توسيع اكواعها لكي تصلح لسير الاوتوموبيل عليها فاذا صارت كلها

صالحة لسيره لم تبقَ قرية من قرى لبنان الاَّ صارت صالحة للاصطياف . فمع ان الاموال اللازمة لاصلاح الطرق كثيرة ولكن الفائدة التي يجنيها الجبل من اصلاحها تربو على ما ينفق اضعافاً مضاعفة

وفي لبنان طريق قديم للمركبات وهو طريق الدلبنس بين بيروت ودمشق وقد ردتهُ شركة الدلبنس الى الحكومة العثمانية فوهبهُ السلطان عبدالحميد للنظارة الحربية كأن الجيش العثماني لا يحق لهُ ان يمر في لبنان الاَّ على هذا الطريق . ولا غرابة في ما عملهُ عبدالحميد لان اعمال المجانين لا قيد لها ولكن الغرابة في ان الحكومة الدستورية لم ترَ حتى الآن فساد هذه الهبة وضررها بحقوق السلطنة

وقد ارادت متصرفية لبنان ان تصلح هذا الطريق وتضع رسماً طفيفاً على ما يمرّ عليهِ من الدواب والمركبات لكي تنفق منهُ على اصلاحهِ فابت عليها نظارة الحربية ذلك . فان كان المراد الاعتراض على وضع الرسم فالاعتراض حسن ويحسن بلبنان ان يصلح هذا الطريق ويبقيهُ حرًّا كما هو الآن والنفقات التي تنفق على ترميمهِ واصلاحهِ لا تضيع لان نفعهُ كبير جدًّا للجبل كلهِ . وان كان المراد ان يباح للبنان ترميم الطريق واصلاحهُ ثم يمنع ابناؤهُ من السير عليهِ من غير ان يدفعوا رسماً للحكومة العثمانية فذلك اجحاف مضر بمصلحة لبنان . وخير من هذا وذاك ان تلغي الحكومة الدستورية ما فعلهُ عبدالحميد لانهُ مناقض لسلطتها على لبنان ومضر بمصلحة سكانهِ وهو جزء لا يتجزأ من املاكها فتترك الطريق لهُ ليصلحهُ وينتفع بهِ

وقد انشئت طرق لبنان كلها باموال يدفعها سكانهُ المكلفون يدفع العامل الفقير منهم الذي لا يملك شروى نقير كما يدفع الغني صاحب الاملاك الواسعة والثروة الطائلة مع ان الثاني يستفيد من انشاء الطرق واصلاحها اضعاف اضعاف ما يستفيدهُ الاول . واهالي بيروت الذين لهم املاك واسعة جدًّا في لبنان لا يدفعون غرشاً واحداً لانشاء هذه الطرق واصلاحها وقس عليهم رهبان الاديرة مخالفين بذلك القاعدة القائلة مَن له الغنم عليهِ الغرم . ولا بد من تغيير هذه الحال عاجلاً او آجلاً . واصحاب الاملاك الذين يعارضون حكومة لبنان في وضع ضرائب خصوصية على املاكهم لاجل الطرق يضرون انفسهم ويضرون الجبل كلهُ لان الطرق تضاعف قيمة الاملاك واما الضرائب فلا تكون الاجزءًا طفيفاً منها

المصايف — كل قرى لبنان الجبلية تصلح للاصطياف وكذلك قرى الجبال المجاورة ليافا وحيفا وعكاء وصور وصيداء وطرابلس واللاذقية ودمشق ولكني لم ارَ الاَّ مصايف

لبنان وهي اشهرها وافضلها لجودة مائها وبرد هوائها وسهولة الوصول اليها . وقد بنيت في بعضها الفنادق (اللوكندات) الكبيرة كفندق صوفر الذي يعدّ من الطبقة الاولى بضخامة بنائهِ وحسن رواتهِ وفنادق عاليه وبكين وسوق الغرب وبحمدون وعين زحلتا وظهور الشوير وزحلة وبعلبك ودمشق . وكلها مثل فنادق القاهرة التي من الدرجة الثانية في فرشها وطعامها ونظافتها واستتباب وسائل الراحة فيها لكن الخدم اللبنانيين لم يبلغوا مبلغ الخدم الاوربيين في تنظيم المائدة وتنظيف غرف النوم ولا منظرهم يرضي الناظر مثل منظر الخدم الاوربيين ولاسيما النذل الذين يخدمون على المائدة فان الخادم يجب أن يكون نظيفاً في لبسهِ لبقاً في حركاتهِ . والاجرة التي تأخذها الفنادق وهي ثمانية فرنكات في اليوم ليست قليلة بالنسبة الى رخص البلاد فان الفنادق التي تأخذ ثمانية فرنكات في سويسرا أكثر منها اتقاناً وأكثر اساليب لسلية المصطافين

اما الطعام بجيد وهو كثير يزيد على الحاجة وكذلك الفاكهة فانها في فنادق لبنان اكثر منها في فنادق اوربا فترى على المائدة صحاف التين والعنب والكمثرى والتفاح والبطيخ صباحاً وظهراً ومساء حتى لو اراد احد ان يعيش على الفاكهة وحدها كما يفعل المتحمسون في وصفها علاجاً لكل الامراض لرأى ما يكفيهِ منها

والغالب ان يكون الفطور من لبن وشاي او لبن وقهوة وجبن ومربى وعسل وبيض مسلوق او مقلو . والغداء من مقبلات ولونين من اللحم ولون من السمك او الطير والعشاء من شوربا ولونين من السمك او الطير ولا يقدم الشاي بين الغداء والعشاء

ولا بدّ من زيادة الاعتناء بالنظافة والخدمة ومن إلباس الخدم كلهم ثياباً نظيفة جدّاً ولو وقت الخدمة على المائدة

ولا بد ايضاً من رش الطرق التي في المصيف والقريبة منهُ مرتين او ثلاثاً في النهار حتى لا يثور منها شيء من الغبار فيستسهل المصطافون المشي فيها دواماً وتؤخذ نفقات الرش من اصحاب الفنادق ومن اصحاب البيوت لانهم كلهم يستفيدون منهُ سواء اجروا بيوتهم او لم يؤجروها

ولا بد ايضاً من انشاء الحدائق والمتنزهات العمومية وساحات الالعاب الرياضية فان في كل مصيف ومشتى من مصايف اوربا ومشاتيها حدائق ومتنزهات وساحات ووسائل مختلفة لسلية النزلاء وترغيبهم في اطالة اقامتهم كما ترى في بريطن وايستبرن ولندن وجنيف وغيرها من المدن الاوربية

ولا يستهان بالمصايف والمشاتي فان بلداناً كثيرة تعيش منها وتعتمد عليها كاكبر وسيلة لمعيشة سكانها . وليس في القطر المصري مصيف لسكانه غير رمل الاسكندرية ورأس البر وهما لا يغنيان عن الاصطياف في بلاد جبلية طيبة الهواء كربى لبنان . ويذهب الآن مئات وألوف من سكان هذا القطر الى اوربا للتغيير الهواء فيها فاذا وجدوا وسائل الراحة والرفاهة في لبنان كما يجدونها في اوربا فضلوهُ عليها من كل وجه لاسيما وان القطرين مشتركان في اللغة والمشرب

ومدن الساحل كلها صالحة لان تكون مشتىً لاهالي دمشق ولبنان وللاوربيين الذين يشتون في جنوبي ايطاليا وفرنسا لاسيما وان كثيرين منهم يفدون الى القدس الشريف في الربيع للزيارة فاذا وجدوا في يافا وحيفا وصور وصيداء وبيروت وطرابلس فنادق متنزهات ووسائل للتسلية اقاموا فيها اياماً واشهراً كما يقيم بعضهم الآن في فنادق القطر المصري

ولا ما يمنع بيروت عن ان تكون مقصداً للسياح من كل الاقطار اذا توفرت لهم فيها وسائل الراحة والنزهة واصلحت طرقها التي فيها والتي في ضواحيها حتى يتيسر لهم الخروج للنزهة يوماً بعد يوم . وهذه الاماني لا تحقق في القريب العاجل ولكن ما رأيتهُ من تقدم البلاد السريع في خمسة وعشرين عاماً يوطد الآمال ببلوغ المراد بعد زمن غير طويل

ولا يقتصر الاصطياف على النزول في الفنادق بل يتناول استئجار البيوت المفروشة وغير المفروشة . وطالما سألني سراة المصريين هل نجد في لبنان بيوتاً معدة لنزولنا فيها وجامعة اسباب الراحة فكنت احار في الجواب لاني لم اكن واقفاً على الحقيقة اما الآن فاقول ان البيوت المعدة لذلك موجودة ولكنها لا تفي بالمراد تماماً كالبيوت المعدة لنزول المصطافين والمشتين في اوربا ولاسيما في البلاد الانكليزية حيث تجد البيت الواحد شققاً مختلفة وفي كل شقة غرف منامة وغرفة جلوس وغرفة طعام وللبيت كلهِ مطبخ مشترك او مطابخ مختلفة وحديقة يتنزه المصطافون فيها وفي كل شقة كل ما يلزم لها من الاثاث والرياش . فهل يفعل اهالي لبنان وبيروت مثل ذلك في القريب العاجل ترغيباً للمصطافين والمشتين . الظاهر انهم يفعلون وهم ازالمحون لان هذا المورد ليس مما يستخف بهِ

وتختلف اجور البيوت المعدة للاصطياف مدة فصل الصيف من نحو عشرة آلاف غرش الى نحو الفي غرش حسب كبر البيت وصغرهِ وكونهِ مفروشاً او غير مفروش وحسب القرية التي هو فيها . والغالب ان تبلغ اجرة البيت نحو ثلاثة او اربعة في المئة من ثمنهِ فتكاد تكون مثل ريع الاملاك في لبنان

بيوت السكان — تأنق سكان لبنان وبيروت في بناء بيوتهم وزخرفتها. اما اهالي بيروت فقد جروا في هذا المضمار منذ اربعين سنة او خمسين ولم تزل البيوت التي بنيت حينئذٍ مثل بيوت سرسق وبسترس والجدي وبيهم وحماده والعريس من اتم مباني بيروت واثمرها. ثم كثر ما بني على نسقها ولا يزال البناء مستمرًّا. والغالب ان يكون البيت الواحد طبقتين او ثلاثًا وفي كل طبقة دار فسيحة طولها عشرة امتار الى خمسة عشر متراً او اكثر وعرضها خمسة امتار الى ستة او سبعة وحولها غرف كثيرة بعضها كبير للجلوس والاستقبال والطعام وبعضها صغير للنامة. ودائرة المطبخ والخدم متصلة بالبيت ولكنها تكاد تكون منفصلة عنهُ وهي في الغالب الى الجانب الجنوبي الشرقي. والدار واجهة بثلاث قناطر على شمنين من الرخام. وقد بنيت البيوت الجديدة في لبنان على هذا النسق بين كبيرة وصغيرة. وزيد اتقان بعضها تأنقًا في زخرفة وبكفيا فبنيت جوانب الابواب والشبابيك واعتابها بالحجر النحيت وزخرف بعضها بنقوش حسنة وسقفت كلها بالقرميد دفعًا للوكف ولتجمع الثلج. وقد كانت سطوح البيوت قبلاً مستوية فيضطر اصحابها ان يكحلوها مراراً في الشتاء او يحدلوها اذا كانت ترابًا ويجرفوا الثلج عنها اذا كانت في الجبال فكفوا الآن مؤونة ذلك كلهِ. ولكنك ترى بيتًا اتفق صاحبهُ نفقات طائلة على بنائهِ وزخرفتهِ وصنع لهُ طنفًا تحت القرميد من الحجر النحيت ثم تركهُ من غير حمام ومن غير مستراح او بنى فيهِ مستراحًا ولكنهُ لم يضع فيهِ آلة ذات نمص وحوضًا للماء. فهذه الشوائب يجب تداركها حالاً ولاسيما في البيوت المعدة للتأجير

واكبر نقص في لبنان من هذا القبيل ان ليس فيهِ ادارة هندسية صحية لتنظيم المباني والشوارع فكل احد يبني على هواهُ وعلى الصورة التي يختارها والغالب انهُ يزحم الطريق على ضيقها حتى يتعذر توسيعها في المستقبل. ولكن انشاء ادارة تنظيم فيهِ متعذر الآن فلم يبقَ الا ان يرى البنائيون انفسهم ان تنظيم مبانيهم الزم لرونقها ورواتها من نحت حجارها وطلي جدرانها

ويظهر ان اكثر الذين بنوا البيوت الكبيرة في لبنان غير قادرين على المعيشة فيها من حيث احوالهم المالية وانهم بنوها لا عن حاجة اليها بل لمجرد التباهي بها. فلا يندر ان يبني الواحد منهم بيتًا بكل ما معهُ من النقود او يشرع في بناء بيت ثم يجد ان نقودهُ لا تكفي لاتمامهِ فيهاجر ثانية ليأتي بما يتمهُ بهِ وبعضهم استدان واتم البيت الذي شرع في بنائهِ وهذا خطأ مبين لان الدين يأكل البيت لا محالة. اما الذين بنوا البيوت بكل ما جمعوهُ في المهاجرة من

النقود فلا سبيل الى لومهم لانهم لم يجدوا وسيلة أخرى « يرفقون » فيها اموالهم بعد ان غلت اسعار الاملاك (الارزاق) غلوًّا فاحشًا ولم يعد ريعها يزيد على واحد او اثنين في المئة من ثمنها

واكثر الذين حادثتهم وحادثوني في هذا الموضوع من وجهاء بيروت ولبنان مجمع على ان اللبنانيين اخطأوا في بناء هذه البيوت . اما انا فلا ارى رأيهم لان البيت الكبير الجميل يرفع شأن صاحبه ويزيد عزة نفسه فيزيد همةً واقدامًا واستهالاً للصعاب ويصير يفضل المهاجرة والتاجرة على العمل بيديه في الحقل والكرم والبستان ثم ان البيت الكبير المتقن يقتضي ان تجاد لوازم المعيشة فيه من فرش واثاث وكل ذلك مما يذكي الهمة ويدعو الى السعي والاولاد الذين يربون في بيت كبير حسن الهندام يشبون على طلب المعالي والترفع عن الاعمال الشاقة القليلة الكسب

اخبرتني سيدة اميركية لقيتها في دمشق وهي من اوسع السيدات علمًا انها بحثت عن احوال المهاجرين السوريين في اميركا بحثًا مدققًا واطلعت على مباحث الحكومة الاميركية عنهم فوجدت ان المهاجر الايطالي او الرومي يكتفي بالعمل الشاق عاملاً في بناء البيوت ومد السكك باجرة محدودة لا تكاد تكفيه طعامًا وشرابًا سواء اجتهد او لم يجتهد . واما المهاجر السوري فيترفع عن ذلك ويشارك التجار في البيع والشراء والغالب انهُ يحمل بضاعتهُ ويجول بها من مكان الى آخر فيكون كسبهُ على قدر اجتهادهِ ومهارتهِ واقتصادهِ لاسيما وانهُ لا يشرب المسكرات مثل سائر المهاجرين

وواضح من ذلك انهُ لو ذهب الفلاح السوري الى اميركا وخدم هناك اجيرًا عند فلاح او فاعلاً عند بناء لما استطاع ان يوفر من اجرتهِ شيئًا يذكر وسهل عليهِ ان يعود الى عمل الحقل كما كان قبل ذهابهِ ولكنهُ لو فعل ذلك لما رأيت شيئًا من هذا الارتقاء الذي يرى الآن اما وقد ترك المعول والمحراث وراءهُ ودخل المخزن او حمل « الكشة » واعتمد على مهارتهِ في البيع والشراء وتجوالهِ للكسب في اماكن مختلفة ولم يتقيد باجرة محدودة بل راقب الفرص واغتنمها وربح اكثر مما يربح المهاجر الرومي والايطالي وعاد بمال وافر تكبرت نفسهُ وتاظر امراء بلادهِ واعيانها في دورهم بعد ان ابتاع اكثر املاكهم

هذا وقد كان لبناء البيوت الكبيرة في لبنان فائدة كبيرة لمدينة بيروت وتجارها لان اللبنانيين جلبوا اكثر مواد البناء من بيروت . والقطاعون الذين قطعوا الحجارة والبناؤون الذين بنوها والمورقون الذين ورقوها والتجارون الذين صنعوا مجورها والنكارون الذين نقلوا

موادها كل هؤلاء انفقوا اجورهم على بضائع اشتروها من بيروت ونحوها من مدن الساحل فالمهاجرة التي عمرت لبنان زادت عمارة بيروت وسائر المدن الساحلية

وقد كنت اعجب كيف تيسر لاهالي بيروت ودمشق وما يتبعها ان يسيروا في سبيل الارتقاء في العشر السنوات الاخيرة مع اشتداد الظلم والقهر في سائر الولايات العثمانية الى ان اجتمعت اخيراً بدولتلو ناظم باشا والي بيروت فأكد لي انهُ حمى الاحرار وجرى على موجب الحكومة الدستورية كل مدة ولايته على سورية وبيروت وكان الجواسيس يفلحون احياناً في الوشاية بزيد او عمرو فتأتي الاوامر من الاستانة مشددة فيخفي عنها ما استطاع الى الاغضاء سبيلاً . وسمعت من كثيرين من العارفين به ما يؤيد ذلك وحسبهُ فخراً انهُ بقي هذا الزمن في الديار السورية ولم يرتش بغرش ولو اراد لجمع مئات الالوف من الليرات كما فعل غيرهُ من الولاة . والوالي الذي لا يرتشي لا يصادر الناس في اموالهم ولا يقف في سبيل تقدمهم ولذلك تيسر لاهالي هاتين الولايتين ان يسيروا شوطاً طويلاً في سبيل الارتقاء

الاستاذ لمبروزو

هو الدكتور قيصر لمبروزو ولد في مدينة فيرونا في الثامن عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٨٣٥ ويتصل نسبهُ باسرة اسرائيلية نبغ كثيرٌ من افرادها فكان بين اسلافهِ عددٌ من المؤلفين والاحبار والمحامين والاطباء وجدهُ لامهِ شاعر يدعى داود لاوي كانت لهُ يدٌ في ثورة ايطاليا التي آل امرها الى الاستقلال

ظهرت على صاحب الترجمة دلائل النجابة منذ حداثتهِ فرأى كثرة الآثار في بلادهِ ومال الى درس تاريخها فقرأ مؤلفات ليڤيوس وطاسيتس وغيرهما وألف مقالة في عظمة رومية وانحطاطها وذلك قبل ان يبلغ الثانية عشرة من العمر . وبعد ذلك بسنة عثر على كتاب في درس الآثار لرجل يدعى بولس مرزولو وهو على جانب عظيم من العلم الاَّ انهُ لم يكن قد نال الشهرة التي يتنفسها عملهُ فكتب لمبروزو مقالة تند فيها الكتاب واظهر محاسنهُ ونشر المقالة في احدى الصحف اليومية فسرَّ المؤلف بها وطلب ان يراهُ فلما التقى بهِ استغرب حداثة سنهِ فاستحكمت الصداقة بين الاثنين من ذلك الحين ودامت زمناً طويلاً

وترك لمبروزو الدروس المتبعة في المدارس العالية واخذ يتعلَّم اللغات الشرقية بارشاد